بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تحدثت في هذا الجزء عن تاريخ الأدب العربي بالشام في عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث، ورأيت أن أرجع بالحديث عن الشام إلى تاريخها منذ الفتح العربي، وبالمثل عن مجتمعها والحركة العلمية والأدبية فيها، وكنت ترجمت في الجزء الخاص بالعصر الإسلامي لشعرائها المبكرين: عديّ بن الرقّاع العامليّ والطرماح الطائي والوليد بن يزيد، وترجمت في الجزء الخاص بالعصر العباسي الأول لشعرائها الأفذاذ: منصور النمريّ والعتابي وأبي تمام، كما ترجمت في الجزء الخاص بالعصر العباسي الثاني لشاعريها البارعين: البُحتري والصنوبري. ومنعًا للتكرار لم أر العودة إلى تراجمهم جميعًا في هذا الجزء وقصره في تراجم الشعراء على حملة لواء الشعر بالشام بعد العصر العباسي الثاني.

وقد بدأت الجزء ببيان مجمل لتاريخ الشام القديم، وتحدثت عن الفتح العربي لها وقيام الخلافة الأموية بدمشق، وكان سلطانها يُظل العالم الإسلامي من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسي، ثم ما كان من تحول الشام زمن الخلافة العباسية إلى ولاية تابعة لبغداد، وتبعيتها للدولتين: الطولونية والإخشيدية حين تأسستا بمصر، واستيلاء الدولة الفاطمية بالقاهرة على الشطر الأكبر منها، وتأسيس إمارة الحمدانيين في شماليها بحلب ثم إمارة بني مرداس، وما حدث من نزول حملة الصليب بها في أواخر القرن الخامس الهجري، وجهاد عماد الدين زنكي في القرن السادس وابنه نور الدين أمير حلب- لهم- جهاداً عظيماً، وضربات صلاح الدين الأيوبي لجموعهم ضربات قاصمة وساحقة لهم في حطين وغير حطين. وتدين الشام لخلفائه الأيوبيين ثم تدين للمماليك، ويمزقون المغول في عين جالوت شر ممزّق، ويطردونهم من الشام كما يطردون منها بقايا حملة الصليب نهائياً. ويدور الزمن دورات، فتنزلها- مع مصر- جحافل العثمانيين وتظل ولاية عثمانية إلى أن تُشرق عليها أضواء العصر الحديث.

obeikandi.com

وكان المجتمع الشامي- حين الفتح العربي- يضم أخلاطاً من أمم شتى آسيوية وأوروبية، وأخذ الإسلام يمزج بين هذه الأخلاط مكوناً منها أمة شامية عربية واحدة. وصبت فيها- زمن الدولة الأمية- كنوز العالم الإسلامي، مما أتاح لها في تلك الدولة رخاء غير قليل، وظلت- بعدها- تنعم بعيش رغد لما فيها من أنهار وعيون وزروع وفاكهة متنوعة ونقل من فستق وغير فستق. وكان أهلها يتقنون- من قديم- صناعات الخزف والأثاث والمعادن والزجاج الملون والنسيج. وظلت التجارة منتعشة بها إلى نهاية أيام المماليك، إذ كانت بوابة كبرى لتجارات آسيا وأوروبا. وعَرَفت- مثل شقيقاتها العربيات- كثيراً من فنون اللهو والغناء. وشاع التشيع في جوانب من ديارها وتعددت بها فرقة المتطرفة من إسماعيلية ونصيرية دروز وفداوية، وشاع فيها الزهد والتصوف وطرقه وما يتصل به من الخانقاهات.

وكانت الحركة العلمية في الشام نشيطة، وألممت بما كان بها- قديماً- من تراث يوناني علمي وفلسفي، وتحدثت عن رعاية حكامها- منذ الفتح العربي- لحركتها العلمية، ثم ما كان من تأسيسهم للمدارس فيها منذ القرن الخامس الهجري وكثرتها كثرة مفرطة في القرون التالية. ألممت بحركة الترجمة في القرون الأولى للهجرة بها وكبار مترجميها وازدهار علوم الأوائل فيها من طب وفلسفة وفلك وهندسة ورياضيات وجغرافيا. وأوضحت ازدهار علوم اللغة والنحو والنقد والبلاغة مع عرض أعلامها جميعًا عرضاً تاريخياً دقيقاً، وبالمثل أوضحت ازدهار علوم القراءات والتفسير والحديث النبوي والفقه ومذاهبه وعلم الكلام مع التتبع الدقيق لأعلام كل منها تاريخياً، وعرضت الكتابات التاريخية ومؤلفيها النابهين في السيرة وتاريخ المدن والتاريخ العام وتاريخ الدول وكتب التراجم، وبذلك كله اتضحت الحركة العلمية في الشام على مر الزمن، وأتضح معها التاريخ الدقيق لجميع العلوم وأعلامها المجلين.

وتحدثت عن اللغات في الشام قبل الفتح العربي وكيف أنها كانت قد أخذت في التعرب قبله بقرون، وتم لها هذا التعرب سريعاً بحيث أصبحت العربية لسان سكانها جميعاً. ولم يكن لها في الشعر العربي نشاط يذكر قبل الإسلام، حتى إذا دخلت في الدين الحنيف وهاجرت إليها جموع من القبائل القيسية النجدية المشهورة بنظم الشعر أخذ الشعر يكثر في ألسنة أهلها من البدو والحضر، وأخذ يظهر فيها شعراء نابهون.

openkanal.com

وطـوال أيـام الأمـويين كـان شـعراء الحجـاز ونجـد والعـراق يفـدون علـى دمشـق لمـديح الخلفاء، ونبغ في البيت الأموي وبين خلفائه غير شاعر.

وتشـارك الشـام بقـوة فـي ازدهـار الشـعر العربـي فـي العصـرين العباسـيين: الأول والثـاني ويتكـاثر شـعراء الشـام فـي القـرن الرابـع الهجـري وتمـوج بهـم حلـب فـي عهـد سـيف الدولـة الحمـداني، ويتـرجم الثعـالبي فـي كتابـه " اليتيمـة" لكثيـرين مـنهم، كمـا يتـرجم البـاخرزي فـي كتابـه " دُميـة القصـر" لطائفـة مـن مشـهوريهم فـي القـرن الخـامس الهجـري، ويتـرجم العلمـاء الأصـبهاني وزيـر صـلاح الـدين الأيـوبي فـي القـرن السـادس لنحـو مائـة وثلاثـين مـن شـعراء الشـام، وتحفـل كتـب التـاريخ والتـراجم- عبـده- بالشـعراء الشـاميين فـي أزمنـة الأيـوبيين والمماليـك والعثمـانيين. وتشـارك الشـام- منـذ القـرن السـادس- مشـاركة خصـبة فـي الأشـكال الجديـدة مـن الشـعر الـدوري فتكثـر بهـا المسـمَّطات والرباعيـات والموشـحات، ويشـتهر فيهـا غيـرُ وشّـاح. ومنـذ أبـي تمـام يُكثـر شـعراؤها مـن البـديعيات، ويدخل الشعراء عليها صوراً مختلفة من التعقيدات.

وأخـذت أحلـل شخصـيات شـعراء الشـام فـي عصـر الـدول والإمـارات منـذ القـرن الرابـع الهجـري، فللمـديح أعلامـه يتقـدمهم ابـن الخيـاط بملكتـه العشـرية الخصـبة، وللفلسـفة والحكمـة أعلامهمـا يتقـدمهم أبـو العـلاء المعـري مفخـرة الشـام الـذي لا يماثلـه أديـب سـابق ولا لاحـق فـي الأدب العربـي شـعراً ونثـراً، وللتشـبيع أعلامـه يتقـدمهم كُشـاجم بلوعاتـه وأناتـه لفاجعـة الحسـين، وللغـزل أعلامـه يتقـدمهم عبـد المحسـن الصـوري الـذي نـوه بـه ابـن خفاجـة درة الأنـدلس طـويلاً فـي ديوانـه، وللفخـر أعلامـه يتقـدمهم أبـو فـراس الحمـداني بروملياتـه التـي جسـد فيهـا الفروسـية العربيـة بكـل مـا لهـا مـن فتـوة وصـلابة عاتيـة. ويتـوالى أعـلام فـي شـعر الطبيعـة والزهـد والتصـوف والمـدائح النبويـة. مـع كـل علـم مـن الشـعراء جميعًـا مـا يتميـز بـه مـن الخصـائص وروائـع الأشـعار. وبلـغ عـدد مـن ترجمـت لهـم مـن أعـلام الشـعراء فـي الشـام خمسـة وثلاثـين شـاعراً فـذا.وذكـرت بيـنهم فـي كـل غـرض مـن أغـراض الشـعر شـاعرا مجيـدا مـن الشـعراء فـي أيـام العثمـانيين، ولـم أتـرجم لعشـرات مـن شـعرائها ترجمـت لهـم كتـب الطبقـات لأنـه لـم يكـن لأحـدهم دور واضـح فـي تطـور الشـعر بالشـام، وأنـا لا أكتـب دائـرة معـارف لشـعرائها. وإنمـا اكتـب تـاريخ شـعرها ومـن تطـوروا بـه وتركـوا فيـه بصـمات واضـحة جعلـت لهـم حظـاً كثيـراً أو قلـيلاً مـن الشـهرة والمجـد الأدبـي. وفسـحت

لدراسة الشعر الشعبي وترجمت لأهم أعلام الزجالين بالشام: أبي العلاء بن مقاتل مع عرض أروع أزجاله.

وترقى الرسائل اليونانية بالشام في عهد الدولة الأموية وتوضح رسومها وتقاليدها، حتى إذا انتهى عهدهم ولم يعد لديوان الإنشاء عمل بعدهم تراجعت هذه الرسائل وما طوى فيها من رقي إلى أن أخذت الدول منذ القرن السادس تتعاقب في الشام وأخذت تعنى بها الديوان وتختار له كتاباً بلغاء، حينئذ ازدهرت كتابة الرسائل الديوانية في زمن الدولتين الأيوبية والمملوكية. ومنذ العتابي في أوائل القرن الثالث تنشط كتابة الرسائل الشخصية، وللببّغاء كاتب سيف الدولة فيها رسائل بديعة، وما يلبث أبو العلاء أن يهدي إلى قراء العربية رسائله الشخصية الفذة، وتكثر تلك الرسائل بعده– طوال العصر– شاكرة أو مهنئه أو معاتبة أو معزية، وهي– مثل الرسائل الديوانية تعتمد دائماً على السجع والمحسنات البديعية. ويكثر الكتاب من صنع المقامات غير أنها لا تعتمد على أديب متسول وحيله الكثيرة وما يطوى فيها من حركة درامية كما كان الشأن عند الحريري في مقاماته، وإنما تعتمد غالباً على الوصف أو المناظرة بين أشخاص أو بين أزهار أو ثمار، وهي بذلك أشبه برسائل مطلة. وتتكاثر كتب المواعظ، ومن أروعها كتاب الفصول والغايات لأبي العلاء، وجميعه تسبيح وتحميد وتمجيد في الله العلي العظيم، ويُجري ابن غانم على لسان الطيور والأزهار حكمًا بديعة.

ولأدباء الشام أعمال نثرية رائعة، في مقدومتها رسالة الغفران لأبي العلاء، وقسمها الأول يصور أهوال المحشر والصراط ونعيم الجنة وعذاب النار، وقد ألهم هذا القسم– بشهادة المستشرقين– دانتي الشاعر الإيطالي كتابه " الكوميديا الإلهية". ومن الأعمال النثرية الفنية رسالة النسر والبلبل لابن حسان الدمشقي وفيها يسأل النسر البلبل عن السر في جمال صوته وسحره، ويدور بينهما حوار بديع. ومن تلك الأعمال كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ وهو أشبه بترجمة شخصية يصف فيها زيارته لمصر أيام الفاطميين وتنقلاته بين حملة الصليب لزمنه، ومنها كتاب نسيم الصبا لابن حبيب في وصف الطبيعة والأخلاق الاجتماعية، وكتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء لأبن عربشاه، وفيه يتناول كثيراً من شئون الحياة والسياسة والتربية.

وواضح أنني عرضت في صحف هذا الجزء تاريخ الأدب العربي في الشام طوال عصر الدول والإمارات مع بيان تاريخها منذ الفتح العربي وبالمثل صورة مجتمعها والنشاط الثقافي والعلمي بها مسترشدا بمصادر ومراجع كثيرة، ولا أزعم أنني صوّرت ذلك كله تصويراً تاماً، وإنما حاولت بقدر ما استطعت. والله وليّ الهدى والتوفيق.

القاهرة في ٢٠ من مارس سنة ١٩٩٠م

شوقي ضيف

obeikandl.com